

# حقيقة هذا الوجود

صالح الهطالي

١٢ من محرم لعام ١٤٢٩ هـ / ٢٠ من يناير لعام ٢٠٠٨ م

الحقيقة التي لا مرء فيها هي أننا نعيش في زمان مليء بالمتناقضات والمفارقات، في زمان مليء بالعجائب والغرائب، في زمان تتجدد فيه الأشياء في أسرع من غمضة العين، ما بين كل ثانية وأخرى تحدث في العالم آلاف بل ربما ملايين الأحداث، ورغم كل ذلك فإن المجتمع الذي نعيش فيه لا يستشعر هذا التغيّر الرهيب الذي يطرأ على كيان المجتمعات في العالم، بل قد لا يُقدّر قيمة الوقت، فلا يحسب للحظات القليلة من الوقت أيّ حساب، وإنما في نظره أن الزمن شبه متجمّد، وأن ما يطرأ في المجتمع من تغيرات إنما تحدث في لحظات متباعدة، وهذا أمر يحتاج إلى نظر.

إن التسارع الرهيب في عدد التغيرات التي تحدث في العالم وحجمها تجعلنا نحن المسلمين على زاوية من هذا الوجود الإنساني، لا نستشعر قيمة ما يجري هنا وهناك ولا أبعاده، وللأسف الشديد فإن الأجيال عندنا تترى على مفاهيم تبعتها بعداً ساحقاً عن حقيقة ما يجري وطبيعته وأبعاده وتأثيراته علينا نحن كمجتمع، وعلى الأمة الإسلامية بشكل أعم.

وهناك الكثير من الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها على مقدار الغفلة التي يعيشها أبناء مجتمعاتنا، فإذا أتينا إلى واقع الناس نجد أن الغالبية منهم على جهل تام بقيمة حياتهم وبالواجبات والمهام المناطة بهم باعتبار أنهم جنس بشري أولاً ثم لأنهم مسلمون ثانياً؛ فالفرد منا يولد ويشب ويتعرع ومفهوم الزمن لديه لا يزيد عن مجرد خطّ من اللحظات المتتابعة المتشابكة التي تسقط الأحداث على بعض منها

فالتصق بها وتلازمها ما بقي لتلك اللحظات من رونق، فإذا رثت وعفت انقشعت تلك الأحداث من ذاكرة الناس.

ولو سألت شخصًا في مجتمعاتنا عن حقيقة وجوده والغاية منه لفاجأك بالإجابة الصحيحة وهي عبادة الله سبحانه وتعالى، لكنها إجابة غير نابعة من قلب ألبسها جلالًا وعظمة، وعقل كساها أثوابًا من الفهم والوعي والتدبر، وإنما مجرد إجابة سمعها تتناقل من لسان لأخرى، فأصبحت كغيرها من الموضات الكلامية التي يتشدد بها كثير من الناس، أما عن حقيقة تلك العبادة وطبيعتها وسرّ المفارقات بينها وبين الواقع الذي يعيشه الفرد فنادرًا ما تجد لها إجابة، بل - على العكس من ذلك - إن تشجّع أحدكم برّد، كاسرًا عادة الصمت التي أصبحت سمة من سمات المجتمع اليوم، فستجد أن ما تقدفه لسانه من تفسيرات لمفهوم العبادة أبعد ما يكون عن التفسير الحقيقي لها، بل ربما حاول النيل منها واعتبرها تحجيرًا وتقييدًا لهذا الإنسان.

فمثلًا من العبارات الشائعة على ألسن الناس قولهم إن العبادة هي كل شيء، أو إن العمل عبادة والنوم عبادة، وإن ما يفعله هو وغيره من الأعمال هي أيضًا عبادة، وهذه الإجابات، وإن بدت في ظاهرها قريبة من التفسير الحقيقي، غير أنها ترمي إلى غايات أخرى؛ فالشخص يريد تبرير سلوكه وتفكيره ومعتقده بأنه لا يخرج عن مفهوم العبادة الصحيح، مع أننا ندرك أن العبادة لها ضابط مُعيّن، وإن بدت واسعة الشمول تغطي جوانب هذه الحياة وآفاقها، غير أنها مقيدة بقصد رضى الله سبحانه وتعالى، فلا بُدّ من أن يصاحب رضى الله النية والتطبيق ومعايشة النتيجة، فلا يمكن لأحد أن ينوي عملاً وهو لا يقصد به رضى الله، ولا يمكنه القيام بذلك العمل وهو غير مستشعر لوجود ومراقبة الله له.

إن التطبيق الحقيقي لمفهوم العبادة أن يقصد في كل لحظة من لحظاته رضى الله، وأن يُحسّن الظن به سبحانه في كل خيرٍ يرجوه من ذلك العمل أو ضُرِّ يدفعه، وبعد أن يتم العمل وتحصل النتيجة لا بُدّ من التسليم المطلق له سبحانه مهما كانت النتيجة، سواءً أكانت تلك التي نمت إلى خاطر الشخص قبل شروعه في العمل أم كانت عكس ذلك، وعليه أن يعتقد اعتقادًا جازمًا أن أية نتيجة حصل عليها إنما هي خير له، وأن الله - سبحانه وتعالى - لا يريد به شرًا، حتى وإن بدت معالمها - حسب تصوّر الناس - غير حسنة أو فيها ضررٌ ظاهري له، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُصِبَّهُمْ

حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ (النساء: ٧٨)، ومصدقًا لحديث الصادق الأمين - عليه الصلاة والسلام - لابن عباس - رضي الله عنهما -: ((وَاعْلَمَنَّ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))<sup>(١)</sup>.

إن عدم إدراك الإنسان لغاية وجوده في هذا الكون أنساه قيمته ككائن بشري ومخلوق من مخلوقات الله، ومن ثمَّ جعله يتعد كثيرًا عن ماهية الأدوار التي عليه القيام بها، ومع انفلات ذلك النظام الإداري الذي أوجبه الله - سبحانه وتعالى - على كُلِّ منا للسَّير عليه، وضبط النفس من خلاله، لا تصبح للوقت أيَّة قيمة في حياتنا، وليس الوقت هو الجانب الوحيد الذي لا يدرك الإنسان قيمته، وإنما لا يدرك أيضًا قيمة ما في هذا الوجود من مخلوقات، فتراه مثلًا يعيش عقودًا متوالية على أرض تبدو له غبراء كالحلحة، ثم يتبيَّن بعد ذلك أنها تموج بكنوز لا يعلم قيمتها وعظمتها إلا الله سبحانه وتعالى.

كذلك فالإنسان لا يدرك قيمة الدواب التي يقع ناظره عليها بين الفينة والأخرى، سواءً أكانت تلك التي سحرها الله - سبحانه وتعالى - له، أم الأخرى التي نشزت عن سيطرته وفارقت قبضته، وآثرت أن تعيش طليقة بعيدة عن سُخريته. إن الإنسان لا يدرك طبيعة هذه الحيوانات، ويعتقد الكثير منا بأنها فقط مُسحَّرة لنا إما لأكلها أو للتنقل عليها أو للمتعة بها أو لغيرها من المفاهيم التي شاعت بين الناس، وهذه جزء من الحقيقة؛ إذ إن الدابة بما كيَّفها الله - سبحانه وتعالى - به، وبما زودها به من أجهزة وقدرات وطاقات لكون أعظم من كونها حُلقت فقط لهذه الاستخدامات البسيطة المحدودة التي يعرفها الإنسان.

مثل هذه التناقضات في الفهم والتصوُّر جعلت الأجيال المتلاحقة من أبنائنا وبناتنا - وخاصة في هذا الزمان - تنأى كثيرًا عن حقيقة الأشياء وطبائعها وأسباب وجودها والغاية من ارتباطها بهذا الإنسان في السكنى أو المعاش أو حتى في الاشتراك بالاستفادة مما أودعه الله - سبحانه وتعالى - في هذا الكون من مكنونات وأسرار.

(١) رواه الإمام أحمد (حديث رقم: ٢٦٦٩).

غالبية شباب هذا العصر يرى نفسه مجرد هيكل بشري من لحم ودم، تنصّب جوارحه عظام، وتنقل كتلته من مكان إلى مكان جوارح، وتستندِرُ سبل البقاء مما حوله من الوجود جوارح أخرى، فتجده يرسم لنفسه في مخيلته هيكلًا أقرب إلى التمثال منه إلى كائن بشري؛ فالأعمال التي يقوم بها في يومه وليله من السهل إلباسها التماثيل؛ فقد نستطيع مثلًا أن نضفي على التماثيل الجامدة نوعًا من الحركة المشابهة لما يقوم به الإنسان، ويمكن أن نجعلها تأخذ طعامًا وترميها في جوفها ثم يخرج بعد حين بصورة أخرى، ويمكن لذلك التمثال أن يرتقي على سرير مفروش بأنعم الفرش ثم تجده يعطُّ في نوم، ويُصدر أصواتًا ويتقلّب في فراشه، فكل هذه الأمور يمكن أن نجعل التمثال يقوم بها، فقد أبدع الإنسان في هذا العصر من استخدام الجمادات إلى درجة أنه استطاع تشكيل ما يسمى بالإنسان الآلي الذي يقوم بمعظم الحركات التي يقوم بها الإنسان.

وقد ظن الإنسان أن العقل هو بمثابة البّر الذي يُميّزه عن غيره من المخلوقات، ولذلك فلو استطاع أن يُوجد تمثالًا أو أداة أخرى تحاكي أدوات التفكير عنده لاستطاع أن يقطع شوطًا كبيرًا في تقليد الإنسان الحقيقي. وفي حقيقة الأمر أن كل هذه مغالطات؛ فمحاكاة طبائع الإنسان والأدوات والجوارح التي يمتلكها، وإن بدت في ظاهرها محاكاة مذهشة، غير أن حقيقتها لم يقترب منها الإنسان بعد؛ فمثلًا عندما ترى إنسانًا آليًا يقوم بحركات قريبة من حركات الإنسان، ويصنع أشياء تَعوّد الإنسان صنعها لأخذتك الدهشة من ذلك، ولذلك أُطلق عليه اسم الإنسان الآلي، والجهاز الذي قام بمحاكاة العقل وما يقوم به من عمليات ذهنية سريعة ومدهشة لا تعدو كونها فقط محاكاة لظاهر طبيعة العقل، وأما حقيقة هذا العقل، وما يتركّب منه، وما يقوم به من عمليات فلم يقترب منها الإنسان بعد.

من كل هذا نقول بأنه لا يصحُّ لنا أن نساوي الإنسان الآلي بالإنسان البشري لمجرد اشتراكه في حركات ظاهرية معه، ولا يصحُّ أن نعتبر الحاسوب كالعقل البشري لمجرد محاكاته لبعض المهام أو الأدوار التي يقوم بها العقل، ولو كان الأمر كذلك لما جاز لنا أن نعتقد بعلم الله المطلق وحكمته المطلقة وعظمته المطلقة في خلقه لهذا الكون؛ فمحاكاة ما يخترعه الإنسان لهذا الإنسان بالصور التي بيّناها قد تُضفي نوعًا من الألوهية أو القدسية على أصحاب تلك المخترعات، وهذا لا يمكن أن يحدث بأيِّ حال؛ إذ إن استشعار عظمة الله - سبحانه وتعالى - في خلقه للإنسان ليس بسبب ما يقوم به الإنسان من حركات وأفعال، وليس بسبب ما يصدر من عقله من عمليات ذهنية ذكية، وإنما بسبب ذلك

السِّر العظيم الذي أودعه الله - سبحانه وتعالى - فيه بحيث يستطيع إدراك حقيقة وجود الله خالقه، ومن ثمَّ حقيقة وجوده هو في هذه الحياة.

إننا لو أمعنا النظر فيما اخترعه الإنسان من أدوات وأجهزة لم نجد منها ما يستطيع استشعار عظمة الله - سبحانه وتعالى - وجلاله بحيث ترتعد فرائص تلك الأداة أو ذلك الجهاز فيختر ساجدًا له سبحانه، ثم تتفاعل أجزاء تلك الأداة أو ذلك الجهاز فتُغيّر من حركاتها وعملياتها العقلية لتعيش في جوِّ روحاني مع الله سبحانه وتعالى. هذا السِّر العجيب هو الذي يُميّز مخلوقات الله عن غيرها من مخترعات البشر؛ فالتسبيح مثلاً هو من السِّمات اللازمة لهذه المخلوقات، كما أخبرنا بذلك سبحانه في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤).

إن كثيراً من الناس يقومون بأعمال وعمليات عقلية في يومهم وليلهم، ويعتقدون أن ذلك يتساير مع المهمة الحقيقية التي خلقهم سبحانه من أجلها، ولهذا فهم يُلزمون أنفسهم طقوساً معينة من الأعمال والحركات يظنون من خلالها أنهم يرتقون بذواتهم إلى الدرجات العلا من السُّمُوِّ البشري الذي اختصّه الله - سبحانه - بهذا الإنسان، كما أخبرنا في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤).

إن هذا المستوى من السُّمُوِّ والعُلُوِّ البشري الذي ذكرته الآية، والموصوف بـ "أحسن تقويم"، لا يليق بأفعال الإنسان والعمليات الذهنية التي يقوم بها؛ فأفعال الناس - وخاصة في هذا الزمان - تبتعد كثيراً، بل قد تسير في طريق يعاكس الطريق الذي يُوصِل إلى مرتبة السُّمُوِّ التي أراد سبحانه لهذا الإنسان أن يتبوّأها، والعمليات الذهنية التي يقومون بها هي عمليات بسيطة لا تتفق مع العمليات الذهنية التي على هذا الإنسان أن يمارسها لكي يقترب من مرتبة السُّمُوِّ التي أشرنا إليها.

من كل هذا نرى أن الناس - في حقيقة الأمر - تائهون غافلون، ومع ذلك يعتقدون أنهم يعيشون الحياة القدسية التي اختصّهم وشرفهم ربُّ العزة بها، لكن هذا الأمر - في حقيقته - مجرد أوهام، فما نشاهده من تصرفات الناس - وخاصة الشباب والفتيات - في الاهتمام بالمظهر، ومحاولة التشبُّث بما في أيدي الغير من مصنوعات ومنتجات هو من قبيل هذا التيه الفاضح، وخطورة الأمر هو أنهم لا يدركون مقدار الضياع الذي يعيشونه، بل على عكس ذلك يعتقدون - كما ذكرنا - أنهم يعيشون حياة قدسية،

وَأَنْ مَنْ يُعَاشِرُونَ - حَقِيقَةٌ - بَعْضُ أَجْوَاءِ تِلْكَ الْحَيَاةِ الْقُدْسِيَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ وَالْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ أَوْلَيْكَ عَلَى أَنَّهُمْ شَادُّونَ.

لَقَدْ انْقَلَبَتْ مَوَازِينُ الْأَحْكَامِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ حَتَّى صَارُوا يَنْظُرُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يُمَثِّلُونَ الْحَيَاةَ الْقُدْسِيَّةَ الَّتِي أَرَادَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِهَذَا الْكَائِنِ أَنْ يَعِيشَهَا، وَأَنَّ النَّقْرَ الْقَلَائِلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الصَّالِحِينَ وَمِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَمَاجِدِ شَادُّونَ وَيَحْتَاجُونَ إِلَى عِلَاجٍ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّا نَنْظُرُ بِشَفَقَةٍ إِلَى هَؤُلَاءِ؛ فَهَمُّ مِنْ نَاحِيَةِ يَعِيشُونَ - كَمَا ذَكَرْنَا - فِي تِيهِ سَحِيقٍ تَتَّسِعُ هُوْتَهُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ لِكثْرَةِ مَا يَسْتَجِدُّ فِي أَذْهَانِهِمْ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ وَاعْتِقَادَاتٍ خَاطِئَةٍ، وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى نَشْفَقُ عَلَيْهِمْ لِحِرْمَانِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّنَعُّمِ بِالْحَيَاةِ الْقُدْسِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي رَسَمَهَا الْمَوْلَى - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالَّتِي تَغْمَرُ مَنْ يَلْجُ فِيهَا بِمَشَاعِرٍ وَأَحَاسِيْسٍ يَعْجِزُ حَتَّى اللِّسَانَ عَنْ وَصْفِهَا.

إِنَّا نَشْفَقُ عَلَى أَوْلَيْكَ تَعْطِيلِهِمْ لِلأَدْوَاتِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِي خَلْقَتِهِمْ وَكِيَانِهِمْ، وَالَّتِي مِنْ خِلَالِهَا يَسْتَطِيعُونَ التَّعَايِشَ الرُّوحَانِيَّ الْحَقِيقِيَّ مَعَ مَفْرَدَاتِ هَذَا الْوُجُودِ، فَهَمُّ مَعَ عَدَمِ إِدْرَاكِهِمْ الْغَايَةَ مِنْ وَجُودِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، يَفْتَقِدُونَ أَيْضًا الأَدْوَاتِ الَّتِي تَوْهَلُهُمْ لِلتَّعَايِشِ الصَّحِيحِ وَالِاسْتِثْمَارِ الْأَمْثَلِ لِمَكْنُونَاتِ هَذَا الْكُونِ، إِذْ إِنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِمَّا فِي هَذَا الْكُونِ اسْتِفَادَةً وَاسِعَةً إِلَّا مِنْ أَمْتَلِكِ أَدْوَاتِ الْاسْتِغْلَالِ الْحَقِيقِيَّ وَالَّتِي لَا تَتَأْتَى إِلَّا مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الرِّبَايَةِ الَّتِي تُوَصِّلُهُ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْدُوا أَنْ يَكُونُوا فَقَطْ مَلْتَقِطِينَ لِلْقَشُورِ الْمَتَسَاقِطَةِ مِنْ جَنِبَاتِ تِلْكَ الْمَكْنُونَاتِ.

وَاللَّأْسَفُ فَقَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى أَذْهَانِ الْبَعْضِ أَنَّ الْاسْتِفَادَةَ مِمَّا فِي هَذَا الْكُونِ لَيْسَ لَهَا عِلَاقَةٌ بِالْإِيمَانِ، وَلَا بِالْإِرْتِبَاطِ الرُّوحَانِيِّ مَعَ مُدَبِّرِ هَذَا الْكُونِ، وَهَمُّ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ هُنَاكَ فَنَاتٍ كَبِيرَةٌ مِنَ الْبَشَرِ تُشَكِّلُ غَالِبِيَّةً مَنْ يَعْمُرُونَ هَذِهِ الْأَرْضَ، وَهَمُّ أْبَعْدَ مَا يَكُونُ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَالْإِرْتِبَاطِ بِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَمْتَلِكُونَ نَوَاصِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَيُكَيِّفُونَهَا لِأَهْوَائِهِمْ وَرَغْبَاتِهِمْ كَيْفَمَا أَرَادُوا، وَلَكِنْ - كَمَا ذَكَرْتُ مِنْ قَبْلِ - فَهَذِهِ لَا تَعْدُو مَجْرَدَ تَوْهْمَاتٍ؛ إِذْ إِنَّ الْمَكْنُونَاتِ وَالْأَسْرَارَ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِي الْكَائِنَاتِ تَتَعَدَّى الْمَفَاهِيمَ وَالْمَنَافِعَ الظَّاهِرِيَّةَ الَّتِي يَحْصُلُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ مَبَاشَرَتِهِ وَتَعَرُّضِهِ لِتِلْكَ الْكَائِنَاتِ، فَهُنَاكَ - كَمَا أَسْلَفْتُ - نَوْعٌ آخَرَ مِنَ التَّعَايِشِ وَالِاسْتِفَادَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ مَنْتَظِمَةً فِي كَيْنُونَةِ تِلْكَ الْكَائِنَاتِ، وَنَسْتَشْعِرُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مَا ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَمِنْ خِلَالِ الْأَمْثَلَةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ - عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَأَرْكَى التَّسْلِيمَاتِ -؛ فَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَقُولُ: ﴿وَإِنْ مِنْ

شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿الإسراء: ٤٤﴾، ويقول  
حكاية عن داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (ص: ١٨).

فالتسبيح من طبيعة كل الكائنات، وهناك أمور كثيرة تتعلق بذلك التسبيح موجودة في ذوات  
تلك الكائنات؛ فالآية السابقة تشير إلى مدى انغماس تلك الكائنات في الخشوع والخضوع لبارئ هذا  
الكون، فهي مسبحة له سبحانه على الدوام ولا تفتر عن ذلك، ولا تقوم بهذا التسبيح كرهاً، وإنما  
لإدراكها للعظمة الربانية، وأن الله مستحق للخضوع والانقياد، وفي الوقت نفسه يدل ذلك على مقدار  
علم هذه الكائنات به سبحانه وبطبيعة خلقها مما جعلها تُدعِن له سبحانه طواعية، كما حكى عن  
ذلك في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا  
طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١).

وقد وردت أحاديث بتسبيح الحجر والطعام بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما  
جاء عن أبي ذرّ الغفاري - رضي الله عنه - أنه قال: ((إِنِّي لَشَهِدْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي  
حَلْقَةٍ، وَفِي يَدِهِ حَصَى، فَسَبَّحَنَ فِي يَدِهِ، وَفِينَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، فَسَمِعَ تَسْبِيحَهُنَّ  
مَنْ فِي الْحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَسَبَّحَنَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، سَمِعَ  
تَسْبِيحَهُنَّ مَنْ فِي الْحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَبَّحَنَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عُمَرَ، فَسَبَّحَنَ فِي يَدِهِ، وَسَمِعَ تَسْبِيحَهُنَّ مَنْ فِي الْحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَسَبَّحَنَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ إِلَيْنَا، فَلَمْ يُسَبِّحَنَّ مَعَ أَحَدٍ  
مِنَّا)) (رواه الطبراني في الأوسط: حديث رقم ١٢٤٤)، وجاء في صحيح البخاري (حديث رقم: ٣٥٧٩) عن  
عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: ((فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ))، وفي صحيح ابن خزيمة (حديث رقم:  
٢٠٤) عنه - رضي الله عنه - أنه قال: ((قَدْ كُنَّا نَأْكُلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ  
نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ)).

كذلك، فالذي لا يُدرکه غالبية الناس أن تلك الكائنات وبسبب إدراكها لحقيقة هذا الوجود،  
وخضوعها المطلق لله - سبحانه وتعالى - تكون في غبطة عندما ترى غيرها من مفردات هذا الوجود  
غارقة في التسبيح والخضوع له سبحانه، كما ذكر عند أبي داود والبغوي عن الإمام علي بن أبي طالب -

كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - قوله: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا مَاتَ بَكَى عَلَيْهِ مُصَلَّاهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَمَصْعَدُ عَمَلِهِ مِنَ السَّمَاءِ))، ثم تلا ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٩).

ثم إن تلك الكائنات تهشُّ وتسعد عندما يتصل بها كائن آخر مستغرق في خضوعه وخشوعه وتبتله لله سبحانه وتعالى، وهذا ينطبق على الإنسان، فعندما ترى تلك الكائنات الإنسان وقد انسجم معها في موكب الولاء والخضوع والخشوع له سبحانه فإنها تسعد، كما رُوِيَ في الزهد والرقائق لابن المبارك (حديث رقم: ٣٣٣) عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: "إِنَّ الْجَبَلَ يَقُولُ لِلْجَبَلِ: يَا فَلَانُ، هَلْ مَرَّ بِكَ الْيَوْمَ ذَاكِرٌ لِلَّهِ تَعَالَى؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، سُرَّ بِهِ"، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا إِلَى قَوْلِهِ: أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، قَالَ: أَفْتَرَاهُنَّ يَسْمَعَنَّ الزُّورَ، وَلَا يَسْمَعَنَّ الْخَيْرُ؟"، وجاء في المعجم الأوسط للطبراني (حديث رقم: ٥٦٢) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال: ((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِنْ صَبَاحٍ، وَلَا رَوَاحٍ إِلَّا وَيَقَاعُ الْأَرْضِ تُنَادِي بَعْضُهَا بَعْضًا: يَا جَارَةَ هَلْ مَرَّ بِكَ الْيَوْمَ عَبْدٌ صَالِحٌ صَلَّى عَلَيْكَ أَوْ ذَكَرَ اللَّهَ؟ فَإِنْ قَالَتْ: نَعَمْ، رَأَتْ لَهَا بِذَلِكَ عَلَيْهَا فَضْلًا)).

وذكر في الأحاديث الكثيرة بأن الكائنات تدعو للإنسان المستقيم، وتسال الله - سبحانه وتعالى - له التوفيق، وتُهدِّد له السُّبُل، وتفاخر غيرها من الكائنات باتصال الإنسان المؤمن بها، فقد جاء عنه - عليه أفضل الصلاة والسلام - أن الدواب تستغفر لفاعل الخير وتدعو له، يقول عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لِيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ)) (رواه الترمذي، حديث رقم ٢٦٨٥).

وبالمقابل فإنها تتضجَّر وتتألم وتدعو بالوبال والنبور وتلعن كل من تراه لا يسير ذلك الطريق، كيف لا وهي تراه يجاهر رب العزة بالمعاصي، وتراه يجعل له الشريك والنَّد، وتراه يميل وينحرف عن جادة الصواب، ويأتي بتصورات ومعتقدات ما أنزل الله بها من سلطان، كما رُوِيَ عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩)، قَالَ: "الْبَهَائِمُ إِذَا أَسْنَتِ الْأَرْضَ، قَالَتْ الْبَهَائِمُ: هَذَا مِنْ أَجْلِ عَصَاةِ بَنِي آدَمَ، لَعَنَ اللَّهُ عَصَاةَ بَنِي آدَمَ".

إن التواصل الذي يحدث بين المؤمن والكائنات الأخرى هو نوع من التسخير الذي يكون للمؤمن ولا يكون لغيره، فإذا كان كل ما في الوجود يدعو للمؤمن بالمغفرة والرحمة والتوفيق فأى تسخير مادي خيرٌ أو يقترب منه؟ وإذا كانت تلك الكائنات تستبشر بالمؤمن، وربما تُمهّد له السُّبُل عندما يصادفها، فأى إنجاز مادي يقرب من ذلك الإنجاز؟

وقد أدرك بعض العلماء الربانيين حقيقة هذا الوجود، ومدى استغراق مفرداته في الخضوع والتسبيح لله سبحانه وتعالى، فهذا الإمام الرباني سعيد بن خلفان الخليلي - عليه رحمة الله - يقول في قصيدة طويلة:

أَعَايُنُ تَسْبِيحِي بِنُورِ جَنَانِي      فَأَشْهَدُ مَنِي أَلْفَ أَلْفِ لِسَانِ  
وَكُلُّ لِسَانٍ أَجْتَلِي مِنْ لُغَاتِهِ      إِذَا الْأَلْفِ أَلْفِ مِنْ غَرِيبِ أَغَانِ  
وَيُهْدِي إِلَى سَمْعِي بِكُلِّ لُغِيَّةٍ      هُدَى أَلْفِ أَلْفِ مِنْ شَتِيَّتِ مَعَانِ  
وَفِي كُلِّ مَعْنَى أَلْفُ أَلْفِ عَجِيبَةٍ      يُقْصِرُ عَنْ إِحْصَائِهَا الثَّقْلَانِ  
وَلَمْ أَذْكَرِ الْأَعْدَادَ إِلَّا نُمُودَجًا      كَأَنَّيَ فِي أَوْصَافِ مِيطِرَانِ  
وَاللَّ فَفَوْقَ الْعَدِّ أَمْرٌ مُنَزَّةٌ      عَنِ الْحَدِّ يَفْنَى دُونَهُ الْمَلَوَانِ  
وَلَا تَتَعَجَّبُ إِنْ عَجِبْتَ فِيهَا      حَقَائِقُ صِدْقٍ لَيْسَ بِالْهُدْيَانِ

إن الناس في هذا الزمان في خطرٍ محقق؛ فإما الموت المفاجئ الذي يأخذهم على حين غرة قبل أن يستطيعوا إدراك حقيقة وجودهم، وعندها يكون لا مفر من عقاب الله - سبحانه وتعالى - ويندمون ولاتٍ حين مندم، وإما أنهم يتعرّضون للكائنات الأخرى بالأذى فيحاولون إخراجها عن طبيعتها الغارقة في الخضوع والخشوع لله سبحانه وتعالى، فتراهم يُسَخِّرُونَهَا لِأَغْرَاضٍ وَأَهْدَافٍ فِيهَا تَدْمِيرٌ لَهُمْ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وتدمير لبني جنسهم، وتدمير لغيرهم مما في هذا الوجود من كائنات ومخلوقات، ولذلك فحُقَّ للكائنات الأخرى أن تلعن وتدعو بنزول غضب الله على من يتنكّب طريق الهداية، فإنها - بلا شك - تدرك مقدار الضرر الذي يمكن أن يلحق بها عندما يجور الإنسان، ويخرج عن جادة الطريق.

إنه لو لم ينتظم هذا الإنسان مع النسيج الرباني الذي تعيشه الكائنات الأخرى لانتشر شرُّه، واستشرى خطره، وعمّت مفسده، لهذا فإن من يستقيم على دين الله يبقى في وَجَلٍ وَخَشْيَةٍ مِنْ أَوْلَئِكَ

الذين يتنكبون طريق الإيمان، فاستقامة أفراد بعينهم لا تعصمهم من الخطر والضرر الذي يمكن أن يلحق بهم من بني جنسهم ممن لا يسرون على طريق الاستقامة.

فنحن نرى مثلاً أن التدخين من أخطر آفات هذا العصر، وأصبح إدراك ضرره وخطره لا يقتصر على المؤمنين فقط، وإنما شاع بين الأطباء والعلماء وحتى عامة الناس؛ فالفطرة السوية تمجُّ وتنأى عن تقبُّل هذه العادة القذرة، ولكن المسلم المستقيم على دين الله يبقى في خوف من مصادفة شخصٍ مُدخِّنٍ حتى وإن كان ذلك الشخص يبدو وديعاً، غير أن ممارسته لتلك العادة الخبيثة تجعل المستقيم يبقى في وجل من انتقال مضار تلك العادة السيئة إليه أو إلى أهله وأولاده، فليس الخوف فقط من استنشاق الروائح الكريهة، وإنما في ما يمكن أن يُحدثه ذلك الدخان المنبعث من تغيير لفعالية وقدرة أجهزة الجسم مما يُسبب لها الأمراض الخبيثة المستعصية التي - في غالبها - لا تؤول إلا إلى الموت.

كذلك، فإن الممارسات الذهنية التي يقوم بها المدخِّن، حتى وإن كان يدعي الإسلام، بعيدة عن الممارسات الذهنية التي ينبغي أن يقوم بها المستقيم على دين الله، والأعمال والحركات التي تقوم بها جوارح المدخِّنين بعيدة أيضاً عن الحركات والأعمال التي يُفترض أن يقوم بها المسلم المستقيم، فخطو الإنسان إلى محلات بيع السيجارة مثلاً - في حدِّ ذاته - حُرْمٌ لطبيعة جوارح الإنسان المستغرقة في العبودية والخضوع لله سبحانه، ولذا فما كانت لتسعى إلى معصية، وطلب الشخص من البائع أن يبيعه سيجارة أيضاً حُرْمٌ لطبيعة اللسان الذي يفترض أن يُسخِّره في ذكر الله وقول الحق، وإنفاقه للمال الذي يشتري به تلك السيجارة هو أيضاً حُرْمٌ عظيم لطبيعة تلك النقود المسبَّحة لله، حيث ما كانت لترضى أن تُدفع مقايضة لفعل معصية.

ومن المظاهر الأخرى لعدم إدراك الإنسان لحقيقة الغاية من وجوده في هذه الحياة ما نراه من التقصير في تلقي العلم واكتساب المعرفة بين عموم الناس، وخاصة الشباب والفتيات؛ فالواحد منهم لا يهتم بدراسته مع غثاثة ما في المناهج التي يدرسها وقلة الفائدة مما تحتويه، مما أدى إلى انتشار الغش بين طلاب المدارس والجامعات، وصار الواحد منهم يكتفي بدرجة النجاح فقط لينتقل من صف لآخر أو مستوى لآخر.

ورغم التحايل للحصول على درجة النجاح بالغش ومخادعة المعلمين، تجرد الواحد منهم أقرب لعنوته بالجاهل من تسميته بطالب علم؛ فالجاهل قد يكونون على دراية ببعض الأمور بسبب خبرتهم

وملاحظتهم لما يدور حولهم، وأما هؤلاء فإن مداركهم قد انغلقت، وآذانهم قد صُمّت، وأبصارهم قد انطمست، فلا يستطيعون التفاعل مع ما يجري حولهم وما يشاهدونه وما يسمعون.

كذلك، فهؤلاء لا يهتمون بالتعرّف على ما يقتضيه منهم دينهم، وإنما تجرد الواحد منهم إن أدى شيئاً مما افترضه الله عليه فإنه يؤديه بحركات وطقوس لا يدرك طبيعتها ولا يشعر بأثرها، وأما جهلهم بما يدور حولهم من أحداث واختراعات فحدّث ولا حرج؛ فمعظمهم لا يهتمون بالمطالعة وتتبع الأخبار والتعرّف على ما يجري في ديارهم أو ديار غيرهم من أحداث ووقائع، ورغم كل ذلك التديّي في العلم الذي يحملونه، والسلوكيات التي يمارسونها، والعبادة التي يؤديونها، ترى الواحد منهم في هيئة لباسه وتنميق كلامه بحيث تحسبه من المثقفين الواعين والعلماء العارفين، فلا يكاد يُفتح باب للحديث إلا وصبّ على سامعيه ما احتوته جعبته من شذرات متناثرة يلتقطها من هنا وهناك حول ذلك الموضوع، وأما أن يعرض الموضوع بما يستحقه من تحليلٍ وتقصٍّ فقد يكون ذلك مستحيلاً عليه.

هذا الحديث الذي أحببنا التعرض إليه يعطينا مؤشراً عن واقعنا المعاش، والدور الكبير الذي علينا القيام به لإصلاحه، وإذا كان ليس بمقدور الكائنات الأخرى التفاعل مع الإنسان والتأثير عليه لينتقل من الغواية إلى الهداية، ومن سلوك طريق التخبُّط إلى سلوك طريق الإيمان، فإن بمقدورنا نحن القيام بهذا الدور، وقد تكون هذه إحدى الخصوصيات التي امتنَّ الله - سبحانه وتعالى - بها علينا ليرفع قدرنا عنده، ويعطينا الفرص الكبيرة لترتقي إلى مستوى السُمُوِّ والعُلُوِّ الذي يريدنا سبحانه الوصول إليه.

إن علينا أن لا نكتفي بمشاهدة بني جنسنا وهم يتخبَّطون في دياجير الظلمات ويعيثون في الأرض الفساد، وإنما علينا أن نأخذ بأيديهم ونصلح أحوالهم، لكي نستطيع العيش سوياً في سعادة ومأمن مما يمكن أن يجروه إلينا من وبال وخطر، ولذلك فإني أدعو نفسي وأدعو إخواني وأخواتي أن يغتنموا كل لحظة من لحظات عمرهم في تبصير الناس بأمور دينهم، وتوضيح الغاية من وجودهم في هذه الحياة، وأن نُفسِّر الأمور بما يقتضيه المقام وليس بما تنتجه الأهواء، وإنما لو فعلنا ذلك فسننعم - بإذن الله - بحياة هنيئة سعيدة في هذه الدار، وبحياة أسعد وأهنأ في الدار الآخرة.

أسأل الله- سبحانه وتعالى- أن يوفقنا لما فيه رضاه، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول  
فيتبعون أحسنه، وصلى اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد  
لله رب العالمين.